

الفصل الخامس

حرية المرأة فى فكر الإمام محمد عبده

إذا كان إصلاح المجتمع وإقامة دعائمه على المساواة بين الحقوق والواجبات بين ركنى المجتمع ودعامتيه الأساسيتين (المرأة والرجل) كان الحديث عن موضوع الحريات والحقوق مكملًا لصالح المجتمع، خاصة أن الإسلام أشرك الرجل والمرأة فى الحقوق والتكاليف الدينية والدينية. تحدث الإمام عن الحرية فى أكثر من مجال، وفى رسالة التوحيد كتب عن حرية الاختيار والحكم فى أعمال الإنسان، وعلاقتها بالقضاء والقدر، وفى المجال السياسى كتب عن الحرية السياسية وأشكالها وضوابطها ونشر هذا فى مقالاته بالوقائع المصرية وفى المنهج الاجتماعى ساهم فى إعداد كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين، ومن الناحية المنهجية لم يغرق الإمام فى تعريفات الحرية، ولكنه اهتم بطرق الموضوعات ووضع المقومات التى ترتبط بها الحرية فى أشكالها المختلفة أى ركز على مكونات ومضامين الحرية^(١).

لم يقف الأستاذ الإمام موقفًا سطحيًا من مشاكل المرأة، وإنما شخص الداء، وحدد أن العلة كامنة فى الفهم الخاطئ لموقف الشريعة من علاقة الرجل بالمرأة ومن العلاقات الأسرية، ومن سيادة ذلك التطبيق الذى يحسبه الناس إسلامًا أو مستمداً من الإسلام، بينما هو غريب كل الغربة

عن حقيقة تعاليم الإسلام.. فهو يرى أن نظرة الرجل إلى المرأة، كما هي في الواقع، وكما تحدها بعض القوانين التي تنظم علاقتها، إنما تعد عودة إلى ذلك الموقف الجاهلي الذي جاء الإسلام فحرر المرأة منه وأعطاه من الحقوق مثل ما للرجال، فيقول: (لقد كان الناس، لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها، لا يرون للنساء شأنًا في صلاح حياتهم الاجتماعية وفسادها، حتى علمهم الوحي ذلك. ولكن الناس لا يأخذون من الوحي في كل زمان إلا بقدر استعدادهم، وأن ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت - (العائلات)، وذلك بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال، بل نسيت معظمه في هذا الزمان، وعادت إلى جهالة الجاهلية)^(٣)، (ومن تدبر هذه الآيات وفهم هذه الأحكام يتجلى له نسبة مسلمي هذا العصر إلى القرآن، ومبلغ حظهم من الإسلام..)^(٤).

وأشار إلى نظرة الغرب للمرأة المسلمة حيث يقول: (وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصرت مدنيته عن شريعتنا في إعلاء شأن النساء يفخرون علينا، بل يرموننا بالهمجية في معاملة النساء ويزعم الجاهلون منهم بالإسلام أن ما نحن عليه هو أثر ديننا. إن أحد السائحين من الإفرنج زارني في الأزهر وبينما نحن ماران في المسجد رأى الإفرنجي بنتا مارة فيه، فبهت وقال: ما هذا؟ أنتي تدخل الجامع!!! فقلت له: وما وجه الغرابة في ذلك؟ قال: إننا نعتقد أن الإسلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح، وليس عليهن عبادة!! فبينت له غلظه وفسرت له بعض الآيات فيهن. فانظروا كيف صرنا حجة على ديننا؟ وإلى جهل هؤلاء

الناس بالإسلام حتى مثل هذا الرجل الذي هو رئيس لجمعية كبيرة،
فما بالكم بعامتهم؟! (٤).

عندما نادى الإمام بحرية الإرادة لم يخص بها الذكور فقط بل الذكور
والإناث، وذلك لأن الله خصهم بالعقل وميزهم بالفكر، ودعا الله الجميع
لفهم ما فى الأكوان والانتفاع بها ولكن فى حدود الشريعة والفضيلة.
يقول الإمام: (ودعا الناس أجمعين ذكورا وإناثا عامة وسادات إلى
عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر، وشرفه
بهما وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره، وأن الله عرض عليهم
جميع ما فى أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون
شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة
الكاملة) (٥).

وضع الإمام حدودا وضوابط للحرية سواء للرجل أو المرأة حتى لا تكون
الحرية وبالا وشرا على الأمة، حيث يقول: (ولكل من هذه الحقوق
الثلاثة حد - أى حرية الرأى، وحرية القول، وحرية الانتخاب - ولو
تعداه لكانت الحرية فيه شرا من القيد وأشنع من العبودية، فحد حرية
الرأى أن يكون مبنيا على القياس، موافقا للحكمة، مطابقا للصواب،
وحد حرية القول أن يراد به الخير، ولا يجاوز فيه حد المنفعة والملايمة،
ولا يمس شرفا مصونا، ولا يضر بريئا أمينا ولا ينشر غير علم يقين، وحد
حرية الانتخاب أن يراد به مصلحة الوطن العزيز ليس إلا) (٦).

أيضا أشار قاسم أمين إلى أن الدين الإسلامى يرفع من مكانة المرأة
ويدعو إلى حرية المرأة، ويعطيها من الحقوق مالم تنلها المرأة الغربية

إلا في هذا القرن فقط، حيث يقول: (ليس في أحكام الديانة الإسلامية ولا فيما ترمى إليه من مقاصدها ما يمكن أن ينسب إليه انحطاط المرأة.. فالمطلع على الشريعة الإسلامية يعلم أن تحرير المرأة هو من أنفس الأصول التي يحق لها أن تفخر به على سواها لأنها منحت المرأة منذ اثني عشر قرناً مضت الحقوق التي تنالها المرأة الغربية إلا في هذا القرن، ومن ثم لو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم في مقدم الأرض)^(٧).

كما أشار قاسم أمين إلى أننا لا نرى المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعي ما يؤهلها لأن تكون مساوية لغيرها في الأمم الأخرى، لكنها اليوم في حالة انحطاط شديد وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جردناها من العقل والشعور وهضمنا حقوقها المقررة لها وبخسناها قيمتها^(٨).



١- حرية الرأي والحرية السياسية:

اشتمل منهج الإمام محمد عبده الإصلاحى على الشمولية والمساواة بين المرأة والرجل في نيل الحريات سواء حرية الرأي، أو حرية القول، أو حرية المواطنة وغيرها، واعتبرها حقاً مشروعاً يجب النضال من أجل الوصول إلى تلك الحريات والعيش تحت ظلال الحرية.

يقول الإمام: (فعلى من يدرك كمال الأمة بتمامها أن يعيش ذلك بكمال كل فرد منها، ويسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد)^(٩).

أشرك الإمام المرأة مع الرجل فى الحرية السياسية وفى وجوب الحصول عليها واعتبرها حقا فطريا يلزم الحصول عليه، حيث ذهب إلى أن للوجود الإنسانى فى هذه الحياة الدنيا ثلاثة أدوار متوالية، يأخذ بعضها بأطراف بعض:

الأول: دور الفطرة وهو الوجود الطبيعى.

الثانى: دور الاجتماع وهو الحالة المدنية.

الثالث: دور السياسة، فالمرء يوجد ساذجا فطريا يلتبس الغذاء والمبيت وسائر الحاجات الطبيعية مما تصل يد إمكانه إليه، ثم يدفعه الحرص على الذات إلى حفظ النوع، وتلجئه كثرة الحاجات إلى طلب الإعانة فيتألف ويجتمع فيصير مدنيا، ثم يتقدم فى المرتبة فينظر فى شئون نفسه ويهتم بأحوال جنسه، فيصير سياسيا، وهو الإنسان المدنى الكامل الحقوق والواجبات^(١٠).

اعتبر الإمام محمد عبده أن الإنسان المدنى الكامل من يكتمل له الحصول على الأدوار الثلاثة السابقة، وأن السياسة والتمتع بحريتها والحصول على كافة حقوقها هى مرتبة الكمال الفطرى الذى أودعه الله فى الوجود الإنسانى، وجعل الوصول إليه آخر الأدوار الإنسانية، فالفطرة السليمة توجب على الإنسان أن يكون حرا وأن ينتمى إلى وطنه ويتمتع بما سماه الأدب السياسى.

يقول الإمام محمد عبده: (إن هذه الحياة توجب للوطنى أن يكون حرا فى رأيه متصرفا فى شأنه إلى حد أن لا يضر بالهيئة المجتمعة ولا يمس شأن سواه، فهذه الحرية على شرطها المذكور تقتضى العلم بالمصلحة

العمومية والحدود الشخصية وهو ما يعبر عنه بالأدب السياسى، ووجه الضرورة فى معرفة هذا الأدب أن المرء إذا عرف مصلحة قومية سعى فيما يوجب لها البقاء والنماء، وإذا رأى حدود إخوانه أقام لنفسه حدا لا يتعداه وخطا لا يتخطاه، بخلاف إذا ما جهل ذلك فإنه لا يأمن حينئذ أن يظهر بما يخالف تلك المصلحة ويفسد هذه الحدود، فتكون حريته ضرا بأوطانه، ووبالا على إخوانه)^(١١).

يركز الإمام محمد عبده على أهمية معرفة الحدود الشخصية والمصلحة العمومية والتي سماها بالأدب السياسى الواجب توافره فى أفراد القوم لتحقيق المصلحة ودرء المفسدة، حتى لا تكون الحرية المطلوبة وبالا على الأمة وهذا تأكيد من الإمام على وجوب التزام مصلحة الجماعة بذكورهم وإناثهم فالخطاب عام يعبر عنه بالمرء الوطنى، مما يؤكد مساواة الخطاب للمرأة والرجل على السواء حتى يتحقق الحصول على الأدب السياسى لكافة أفرادها.

يقول الإمام: (فإذا حصل هذا الأدب الوطنى السياسى وكان مع ذلك نبيل النفس، طاهر النية، صادق النسبة، قادرا على إثثار المصلحة العمومية، فله حينئذ (حينئذ فقط) ما لسائر أهل الحياة السياسية، وهى حقوق كريمة مقدسة لا ينبغي أن يمسه إلا المطهرون من درن الدنيئات: حرية الرأى وحرية القول وحرية الانتخاب)^(١٢).

ويؤكد الإمام محمد عبده أنه مهما بلغت الأمة من مبالغ السياسة فلا بد لها من تحديد الهدف الذى ترجو الوصول إليه وذلك هو ما يؤدى إلى التقدم والارتقاء.

يقول الإمام: (ومهما بلغت الأمة من مبالغ السياسة، وكثر عدد أفرادها المتأدبين بذلك الأدب، فلن يكون لها نماء ولا بقاء في الحياة السياسية ما لم تكن ذات وجهة معلومة، ووحدة لا تقبل النزاع والخلاف، يدل على ذلك تقدم الذين اتحدت وجهتهم، وتأخر الذين تفرقت كلمتهم من قبلنا وفي هذه الأيام)^(١٣).

ويرى الإمام أن الوصول إلى الحرية السياسية بعد الأدب السياسي يتفاوت بتفاوت الجهد، ولبلوغ الدرجة العليا لا بد من صعود سائر الدرج والمراحل، يقول الإمام: (فأنت في أول درجة من مرقاة السياسة، وفي أول مرحلة من طريق الحرية فلن تبلغ الدرجة العليا إلا إذا صعدت سائر الدرج، ولن تدرك الغاية القصوى ما لم تقطع سائر المراحل، فإن حاولت غير ذلك لا تأمن الهبوط من الدرجة التي بلغت، والرجوع إلى المرحلة التي وصلت. بل ربما صرت على مسافة أعوام مما كنت ترجو إدراكه بأيام)^(١٤).

فالوصول إلى الحقوق السياسية يتطلب جهدا وبذلا للنفس من أجله يقول الإمام في ذلك: (وليس الأدب مما يؤخذ بالمكاشفة، أو يحصل بالسليقة أو يعرف بالبداهة، بل لا بد في تحصيله من الطلب والاجتهاد وحسن الاقتداء ودقة النظر والتبصر في أحوال الناس من قبل وفي الحال)^(١٥).

لكن الأدب السياسي لا يتحقق في نفوس الأفراد كافة لكن هناك اختلافا بينهم كما يقول الإمام: (الأدب السياسي لا يحصل لأفراد الأمة كلهم أجمعين، ولا يكون في الذين يحصلونه سواء بمقدار واحد لأنه

من الملكات الصناعية العلمية ، والملكة لا تحصل إلا بتكرار العمل ، وإن حصلت فإنها تختلف استحكاما وكمالا بحسب اختلاف القابلية والتفرغ في الناس^(١٦).



٢- حرية المرأة في اختيار الزوج:

من الحريات التي دعا إليها الإمام محمد عبده حرية المرأة في اختيار الزوج ويستدل^(١٧) على ذلك بقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١٨).

والآية ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ هي حكم جديد غير الأحكام السابقة هو تحريم العضل أي (منع المرأة من الزواج) ، وقد كان من عادات الجاهلية أن يتحكم الرجال في تزويج النساء ، إذ لم يكن يزوج المرأة إلا وليها فقد يزوجها بمن تكره ويمنعها ممن تحب لمحض الهوى. وقال المفسرون: إن الرجال المطلقين كانوا يفعلون ذلك ، فيتحكم الرجل بمطلقته فيمنعها أن تتزوج أنفة وكبرا أن يرى امرأته تحت غيره ، فكان يصد عنها الأزواج بضروب من الصد والمنع ، كما كان يراجعها في آخر العدة لأجل العضل. وقد أثبت الإسلام الولاية للأقربين وحرم العضل ، وهو المنع من الزواج ، وأن يزوج الولي المرأة بدون إذنها ، فجمع بين المصلحتين^(١٩).

واستدل بما ورد في سبب نزول الآية في الصحيح: أخرج البخارى وأصحاب السنن وغيرهم بأسانيد شتى من حديث «مقل بن يسار» قال: (كان لى أخت . فأتانى ابن عم لى فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت. ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة. فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقلت له: يالكع، أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها؟! والله لا ترجع إليك أبدا، وكان رجلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله هذه الآية (قال): ففى نزلت، فكفرت عن يمينى وأنكحتها إياه. وفى لفظ: فلما سمعها مقل قال: سمعا لربى وطاعة. ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك. وذلك أن النبى (صلى الله عليه وسلم) دعاه فتلا عليه الآية^(٢١).

ويكمل الإمام محمد عبده تفسير قول الله تعالى: ﴿إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أى إذا تراضى مريدو التزوج من الرجال والنساء بأن رضى كل من الرجل والمرأة بالآخر زوجا. وقوله «بينهم» يشعر بأن لا نكر فى أن يخطب الرجل المرأة إلى نفسها ويتفق معها على التزوج بها، ويحرم حينئذ عضلها، أى امتناع الولى أن يزوجه منها، إذا كان ذلك التراضى فى الخطبة بالمعروف شرعا وعادة، بأن لا يكون هناك محرم ولا شىء يخل بالروءة ويلحق العار بالمرأة وأهلها، وقد استدل الفقهاء بهذا على أن العضل من غير الكفاء غير محرم كأن تريد الشريفة فى قومها أن تتزوج برجل خسيس يلحقها منه الغضاضة، ويمس ما لقومها من الشرف والكرامة، فينبغى أن تصرف عنه بالوعظ والنصيحة. ويجوز بعض الفقهاء العضل إذا كان المهر دون المثل^(٢٢).

ويوضح الإمام محمد عبده رأيه في ذلك فيقول: (وعندى أنه إذا أرادت المرأة أن تتزوج بأقل من مهر مثلها، ولم يكن الحامل على ذلك فساد الأخلاق المسقط للكرامة أو اتباع الهوى وإرضاء الشهوة بل كان ميلا إلى رجل مستقيم يرجى منه حسن العشرة وصلاح المعيشة إلا أنه يعسر عليه دفع مهر كثير مع نفقات الزواج الأخرى، فلا يجوز حينئذ العضل بل يجب تزويجه)^(٣٣).

ويستطرد الإمام محمد عبده ويقول قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٣٤) ويصرح أن الآية تدل على أن الإيمان الصحيح يقتضى العمل، وقد غفل عن هذا الأكترون، وقرره الأئمة المحققون، كأنه يقول: من كان مؤمنا فلا شك أنه يتعظ بهذا. يشير إلى أن من لم يتعظ ويعمل بها فليس بمؤمن. وتدل على أن أحكام الدين حتى المعاملات منها ينبغى أن تساق إلى الناس مساق الوعظ المحرك للقلوب، لا أن تسرد سردا جافا كما ترى فى كتب الفقه^(٣٥).

ثم يستطرد الإمام ويفسر قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَرْكَانُ كَرِّ وَأَطْهَرُ﴾ فيقول: (الزكاة النماء والبركة فى الشيء، والمشار إليه فى «لكم» هو النهى عن عضل النساء بقيدته وشرطه، والمراد أنه مزيد فى نماء متبعيه وصلاح حالهم ما بعده مزيد ينضله، وأنه أظهر لأعراضهم وأنسابهم، وأحفظ لشرفهم وأحسابهم، لأن عضل النساء والتضييق عليهن مدعاة لفسوقهن، ومفسدة لأخلاقهن، وسبب لفساد نظام البيوت وشقاء الذرارى. وذلك مثل حال امرأة كأخت «معقل بن يسار».. مثل أيضا ولى يمنع موليته من الزواج بمن تحب ويزوجها ممن تكره اتباعا لهواه، أو

عادة قومه ، كما كانت العرب تفعل. وانظر أترجو أن يصلح حالهما ،
ويقيما حدود الله بينهما؟ أم يخشى أن يغويها الشيطان بالآخر ويغويه
بها ، ويستدرجها فى الغواية فلا يقفان إلا عند نهاية حدودها؟ وهكذا
مثل كل مخالفة لهذه الأحكام تجدها مفسدة^(٢٥).

أما الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيفسرها الإمام محمد
عبده (أى يعلم سبحانه ما لكم فى ذلك من الزكاة والطهر وسائر المصالح
ودفع المفسد. وأنتم لا تعلمون ذلك كله علما صحيحا خاليا من الأهواء
والأوهام ، واعتزاز الرجال بقدرتهم على التحكم فى النساء ، ولذلك
ذكرهم فى أثر النهى فى عضل النساء عن الزواج بهذه الثلاث :

١ - أنها موعظة يتعظ بها من يؤمن بالله واليوم الآخر.

٢ - أنها أذكى لكم وأطهر لأعراضكم.

٣ - أن الله يعلم كل ذلك كغيره وأنتم لا تعلمون.

وهذه آيات علمه ظاهرة ، فإن البشر من جميع الأمم ، لا من العرب
وحدهم ، لم يهتدوا إلى هذه الأحكام المنزلة فى هذه السورة النافعة
باختبارهم الطويل ، بل عزيت حكمتها عن نفوس الأكثرين بعد أن نزل
الوحى بها فلم يعملوا بها ، وكان يجب على المؤمن الذكى أن يقيما
على وجهها ملاحظا فوائدها ، وعلى المؤمن الغيبى أن يسلم أمر ربه
تسليما ، وإن لم تظهر له فائدتها فى الدنيا ، اكتفاء بأن الله تعالى يعلم
من ذلك ما لا يعلم هو^(٢٦).

وأشار الإمام محمد عبده إلى أنه قد كان الناس لجهلهم بوجوه
المصالح الاجتماعية على كمالها ، لا يرون للنساء شأنا فى صلاح حياتهم

الاجتماعية وفسادها، حتى علمهم الوحي ذلك ولكن الناس لا يأخذون من الوحي في كل زمان إلا بقدر استعدادهم، وأن ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال، بل نسيت معظمه في هذا الزمان وعادت إلى جهالة الجاهلية^(٢٧).

ولهذا الجهل السابق ولتوهم الذين يسيئون معاملة النساء من الرجال أنهم يفعلون ما هو مصلحة لهم ومحافظة على شرفهم، ختم هذه المواظم والأحكام والحكم بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢٨).

أكد الإمام محمد عبده أن شريعتنا السمحاء منحت النساء حقوقاً لا تنقص عن حقوق الرجل في الزواج، لها الحق مثله في أن تتأكد بنفسها من إمكان تحقيق آمالها، وما علينا إلا أن نسمع صوت شريعتنا، ونتبع أحكام القرآن الكريم وما صح من سنة النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأعمال الصحابة لتتم لها السعادة في الزواج^(٢٩).

واستشهد الإمام بما جاء في الكتاب العزيز: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٣٠)، وكان ابن عباس يقول، اتباعاً لهذه الآية الكريمة: (إنى أحب أن أتزين لامراتي كما أحب أن تتزين لي). وقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٣١)، وقال في تعظيم حقهن: ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٣٢)، وجاء عن النبي (صلى الله عليه وسلم): «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله»^(٣٣).. وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحب النساء، كما ورد في الحديث: «حبيب إلى من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»^(٣٤)،

وكان يحترم النساء احتراماً برهن للعالم على حسن خلقه ، حتى إنه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها إذا أرادت أن تركب الناقة ، وكان يتنازل إلى ملاعبتهن وممازحتهن حتى روى أنه كان يسابق عائشة (رضى الله عنها) فسبقته يوماً وسبقها فى بعض الأيام فقال : «وهذه بتلك» ، وكان يرأف بالنساء ، والأحاديث فى هذا الموضوع كثيرة ، كلها تدل على أن الدين الإسلامى يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالإحسان والمعروف^(٣٥).

ويرجع الإمام السبب لما هو عليه حال المرأة فى عصره إلى الجهل فالزوج لا يكون - كما هو الآن - إلا شكلاً من الأشكال العديدة التى يستبد بها الرجل على المرأة.. أما إذا تعلمت المرأة حقوقها ، وشعرت بقيمة نفسها ، عند ذلك يكون الزواج الوسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معاً ، عند ذلك تؤسس الزوجية على انجذاب شخصين يحب أحدهما الآخر حبا تاما بحسهما وقلبهما وعقلهما ، عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل إليه وترتبط به بعقد الزواج ، ويعرف أهلها أن فى كمال عقلها ما يكفى لحسن اختيارها ، فيكونون معها على اتفاق فى الرأى ، فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس عليهم ، عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء ، ويذوقون لذة الحب الحقيقى^(٣٦).

ويذهب الإمام إلى أن الحب المتبادل هو أساس العلاقة الزوجية ويقول فى ذلك : (انظر إلى زوجين متحابين ، تجدهما من اليوم فى نعيم الجنة.. ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خالياً من المال ، أو أن يكون

على المائدة عدس وبصل، أما يكفيهما فرح القلب في كل دقيقة تمر من اليوم.. هذا الفرح الذي يبعث النشاط في الجسم والطمأنينة في النفس ويحيى في القلب شعورا بلذة الحياة ويزينها له ويخفف ثقلها عليه ويجعلها منه في كل مكان الرضى، حتى قال عمر بن الخطاب: «ما أعطى العبد بعد الإيمان خيرا من امرأة صالحة»^(٣٧).

إن كل رجل يقصد من الزواج أن تكون له صاحبة تشاركه في السراء والضراء يصعب عليه، بل قد يتعذر أن يبلغ ما يريد من ذلك، (ولهذا السبب رأينا في هذه السنين الأخيرة كثيرا من الشبان القادرين على الزواج لا يرغبون فيه، ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد في كل سنة - لأن الشعور بوجود تربية البنين تقدم وسيقدم كثيرا في المستقبل - صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية أمرا ضروريا لا يستغنى عنه، وإلا فما علينا إلا أن الثقة بالزواج قد فقدت، وأن المعاملة به قد بطلت، وحق عليه الإفلاس)^(٣٨).

وإذا كانت الأسرة عماد المجتمع، فقد اتجه الإمام إلى إصلاح نظام الأسرة المصرية^(٣٩) فحدثنا عن حاجة الإنسان إلى الزواج قائلا: (لما كان من لوازم حفظ النوع الإنساني، المعرض للفناء والزوال، التناسل والتوالد، أودع الحق سبحانه في طبيعة الإنسان قوة شهوية تدعوه إلى الاقتران وتحمله على طلب الازدواج، كسائر أنواع الحيوانات)^(٤٠). (كما أباحت الشريعة الزواج بأربعة من النسوة وجواز مفارقتهم بالطلاق، مع بيان ما كان عليه السلف الصالح في معاشرتهم والعدل بينهن، وحصول ضد المقصود أن يكون الزواج موجبا للعدوات وتفريق الشمل بدلا من

المحبة وجمع الكلمة كما أوجبه الشريعة، وليس لنا غرض من ذلك سوى تبيين الحق وتوضيح الصراط المستقيم^(٤١).

اتجه الإمام محمد عبده في توضيح حاجة المرء إلى الزواج اتجاهها عقليا يخاطب عقل الإنسان لا غرائزه فليس الزواج متعة جسدية دون المتعة العقلية والهدوء النفسى والاستقرار، لذلك يدعو الإمام الزوج إلى إعمال عقله وإطلاق العنان لفكره فى البحث عن معنى الزواج فى الشريعة الإسلامية وهو بذلك يطبق منهجه العلمى الذى بنى عليه منهجه الإصلاحى عامة^(٤٢).

انتقد الإمام تعريف الزواج عند الفقهاء الذين جعلوا الزواج مقتصرًا على المتعة الجسدية والتمتع بالشهوة، وأغفلوا القيم الروحية والمعنوية فيه، مما رسخ فى الأذهان عند العامة أن الزواج لا يعنى سوى قضاء الشهوة الجسدية إذ عرفه الفقهاء بأنه (عقد يملك به الرجل بضع المرأة) وغاب عن تعريفهم وصف القرآن الكريم بأنه سكن من المخاوف والهموم، يقوم على أساس المودة والرحمة بين الزوجين قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤٣).

حيث يقول الإمام محمد عبده: (وقد رأيت فى القرآن الشريف كلاما ينطبق على الزواج ويصح أن يكون تعريفا له، ولا أعلم أن شريعة من شرائع الأمم التى وصلت إلى أقصى درجات التمدن جاءت بأحسن منه، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٤٤)،^(٤٥).

فاندى يفارن بين تعريف القرآن وتعريف أولئك الفقهاء يدرك بنفسه مدى تساهلهم فى تعريف رباط الزوجية؛ إذ غاب عن هذا التعريف الواجبات الأدبية والشريعة لكلا الزوجين، وغابت عنه القيمة الروحية والنفسية لرباط الزوجية، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على غياب العقل عن مفهوم الزواج، والافتقار على الجانب الغريزى عند الرجل وحسب، الأمر الذى أضعف إحساسه بمسئوليته تجاه الأسرة التى يقيمها عندما يرتبط بالمرأة ومدى قدسية هذا الرباط، يقول الإمام: (إن الزوجية أقوى رابطة تربط اثنين من البشر أحدهما بالآخر فهى الصلة التى بها يشعر كل من الزوجين بأنه شريك الآخر فى كل شيء مادى ومعنوى، حتى إن كل واحد منهما يؤاخذ الآخر على دقائق خطرات الحب، وخفايا خلجات القلب، يستشفها من وراء الحجب، أو توحىها إليه حركات الأجفان، أو يستنبطها من فلتات اللسان)^(٤٦).

ويوضح الإمام أن الذى يقارن بين التعريف الأول الذى فاض من علم الفقهاء علينا والتعريف الثانى الذى نزل من عند الله يرى بنفسه إلى أى درجة وصل انحطاط المرأة فى رأى فقهائنا وسرى منهم إلى عامة المسلمين، ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التى سقط إليها الزواج حيث صار عقداً غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ليتلذذ به، وتبع ذلك ما تبعه من الأحكام الفرعية التى رتبوها على هذا الأصل الشنيع^(٤٧).

ثم يقول الإمام عن الزواج: (فهذا النظام الجميل الذى جعل الله أساسه المودة والرحمة بين الزوجين تحول أمره بفضل علمائنا الواسع إلى أن

يكون اليوم آلة استمتاع فى يد الرجل، وجرى العمل على إهمال كل ما من شأنه أن يوجد المودة والرحمة وعلى التمسك بكل ما يخل بهما^(٤٨).

حيث يقول الإمام: (ولا يختلف اثنان فى أن الزواج الذى يبني على هذا التوافق يكون أمراً محترماً فى نفوس الزوجين، وتكون عقده من المتانة بحيث لا يسهل انحلالها، ويكون أيضاً موجبا للعفة والتصون، وعنده أن كل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لأحد من الزوجين، مهما طال أجل الزواج... ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم الشرط، كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد، تنحل لأول عرض يطرأ عليها، وأغلب ما يكون من ذلك لا سبب له إلا رغبة كل منهما فى الخروج من قيد لا يرى وجها للمحافظة عليه، والتنصل من أمر لا قيمة له فى نفسه)^(٤٩).

ومن وجهة نظر الإمام أنه (قد أفسد على الناس تلك المودة والرحمة. وحجبهم عن الموعظة بالحكمة، وأضعف فى نفوس الأزواج ذلك السكون والارتياح، غرور الرجال بالقوة وطغيانهم بالغنى، وكفران النساء لنعمة الرجال وحفظ سيئاتهم، وتماديهن فى الذم لها والتبرم بها، وما مضت به عادات الجاهلية فى بعض المتقدمين وعادات التفرنج فى المعاصرات والمعاصرين، وقلد به النساء بعضهم بعضاً، والله سبحانه وتعالى ذكرنا، أولاً بنعمته علينا فى أنفسنا لتزيح عن الفطرة السليمة ما غشيها بسوء القدوة واتباع الهوى، ونشكرها له سبحانه بالمحافظة عليها بتمكين صلة الزوجية واحترامها وتوثيقها، وثانياً بهذا الدين القويم الذى هدانا إلى ذلك)^(٥٠).

فظهر من ذلك أن سعادة الإنسان في معيشته، بل صيانة وجوده في هذه الدار، موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها، ويضرب لها حدودا يقف كل شخص عندها، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة، فيمتنع التعدي، ثم يظهر منه التعلق الخصوصي بين كل شخص وزوجته وكل زوجة وبعلمها، فيسعى كل لخير من اختص به، حيث إن سعيه لكل البشر غير ممكن... وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الأمر.. وأمرت الطرفين بحسن المعاشرة، ونهت عن ارتكاب أى أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلي، الذي لا تتم سعادة العائلة إلا برعاية حرمة، والمحافظة على حقوقه، كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفرادها، وحسن الاقتصاد في المعيشة. وأن ينظر كل واحد إلى مصلحة العائلة نظرة إلى مصلحته الخصوصية. وبعبارة أظهر ليس عنده أمر يعد مصلحة إلا إذا كان يوجب لعائلته الثروة والتقدم، وينقلها من حطة الشقاء إلى درجات السعادة والهناء^(٥١).

فنتبين من ذلك كما يرى الإمام محمد عبده أن الشهوة الحيوية المغروسة في الإنسان لم تكن مقصودة لذاتها، بل هي آلة لنيل الإنسان مآربه التي لا تستطيع المقام بدونها، كبقائه في عالم الوجود، يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده، وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن اربطت معه بالرابط المعروف بصلة النسب والقربة، الذي يعد من أقوى الروابط الإنسانية التي لولاها لاختل نظام الوجود الإنساني بالمرّة، كما هو ظاهر، ولما كان التعاون على المصالح المعاشية، والاتحاد والتآلف، وجمع الكلمة من ثمرات الزواج..^(٥٢).

استنادا إلى مقولة الإمام بأن الأمة تحتاج إلى إصلاح من داخلها، وإلى مقولته بأن العقل يستطيع أن يميز بين الخطأ والصواب في الأمور الدنيوية، وأن الإسلام يحض على الاجتهاد ويدفع إلى التطور، ذهب قاسم أمين، وفتحي زغلول ومحمد حسين هيكل وطه حسين وعباس محمود العقاد وغيرهم إلى الحديث عن نهضة الأمم الأوروبية وضرورة الأخذ عنها وإلى إعادة النظر في التراث بقبول الصالح للعصر وترك ما لا يصلح له^(٥٣).

في مقدمة هؤلاء المصلحين يأتي قاسم أمين بجهده الكبير في الدعوة إلى حرية المرأة مستندا إلى أقوال أستاذه الإمام عن الرفاهية الاجتماعية، ومصلحة الجماعة. ولكن دعوته لتحرير المرأة في كتابه «تحرير المرأة» كانت تحمل خلفها دعوة أشمل، هي افتقار المجتمع الشرقي إلى العلم الحديث وشيوع الاستبداد السياسى فيه. ومن ثم اتجه في كتابه الآخر «المرأة الجديدة» إلى التأكيد على أهمية التطور القائم على العلوم الحديثة والقدرة البشرية المتحررة، ومن خلال نظام قائم على الحرية السياسية. فى ذلك لم يعد قاسم أمين يستند إلى القرآن أو الشريعة أو الأسلوب الذى كان يتحدث به فى «تحرير المرأة»، وإنما إلى أفكار العلم والفلسفات الاجتماعية الغربية وأصبح التقدم لديه لا يقوم على العبادات والغيبيات وإنما على المكتشفات العلمية التى توصل إليها الإنسان، وأصبحت العقيدة واحدة من عدة وسائل يمكن عن طريقها تحقيق التقدم^(٥٤).

أكد قاسم أمين الإقرار بمبدأ التطور فى العلاقات الاجتماعية، مما جعله يقول إن بقاء المجتمع لا يعتمد على الأخلاق أو الدين وحسب بل

على استعداد المجتمع أيضا لتقبل قوانين التطور؛ حيث يقول: (لا ريب أن المرأة اليوم أخط من الرجل في الجملة، ولكن علينا أن ننظر هل هذه الحال طبيعة لها أو ناشئة من طرق تربيتها، تلك هي المسألة التي يلزمنا لحلها أن نرجع إلى الأصول العلمية لنعلم ما تقرره فيها. رأى العلماء أنه لا يصح الحكم على طبيعة المرأة ومبلغ سعادتها للكمال الإنساني بآثارها التي صدرت منها إلى الآن، وإنما يصح ذلك بعد أن تسلك من حريتها ما يملك الرجل وبعد أن تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تساوى المدة التي قضاها الرجل في تربية ملكاتهم العقلية والأدبية)^(٥٥).

كما بذل المفكر قاسم أمين^(٥٦) الذي يحتل في تاريخنا الفكري المعاصر مكانة بارزة ويكفي أننا لا نذكر حركة تحرير المرأة العربية إلا ونذكر معها كتابي «المرأة الجديدة» و«تحرير المرأة» والكتابان من تأليف قاسم أمين، لقد بذل قاسم أمين جهدا كبيرا في مجال الدفاع عن تحرير المرأة، واستطاع أن يضع بصماته الواضحة والبارزة في ميدان الدفاع عن تحرير المرأة والدعوة إلى تحررها من القيود والأغلال والعادات والتقاليد البالية^(٥٧).

ويستعرض قاسم أمين تاريخ حياة المرأة في العالم يتكشف لنا أن المرأة عاشت حرة في العصور الأولى، حيث كانت الإنسانية لم تزل في مهدها، ثم بعد تشكيل العائلة وقعت في الاستعباد الحقيقي، ثم لما قامت الإنسانية على طريق المدنية تغيرت الصورة، صورة هذا الرق، واعترف للمرأة بشيء من الحق، وإن خضعت لاستبداد الرجل الذي قضى عليها بأن لا تتمتع بالحقوق التي اعترف لها بها، ثم لما بلغت

الإنسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة وتساوت المرأة بالرجل فى جميع الحقوق أو على الأقل فى معظمها^(٥٨).

ويرى قاسم أمين أن: (المرأة المصرية هى اليوم فى الدور الثالث من حياتها التاريخية، بمعنى أنها فى نظر الشرع إنسان حر له حقوق وعليه واجبات، ولكنها فى نظر العائلة وفى معاملتها لها ليست بحرة، بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية. وهذه الحالة التى عليها المرأة اليوم هى من توابع الاستبداد السياسى الذى يخضعها وتخضع له)^(٥٩).

وهذا يوضح أن قاسم أمين سار على نهج أستاذه محمد عبده فى الدفاع عن حقوق المرأة وضرورة الاهتمام بها كإنسانة حرة محترمة لها حقوق وعليها واجبات، وأن العلم ضرورة يرفع من شأنها ويجعلها أمًّا وزوجة صالحة تعمل مع زوجها على بناء أسرة سعيدة فى مجتمع متحضر.



٣- نماذج من الريادات النسائية اللاتى حررهن الإسلام منذ عهد النبوة:

تعتبر وسطية الإسلام فى تحرير المرأة وإنصافها نموذجاً يباهى الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتى حررهن الإسلام منذ عصر النبوة وحتى العصر الذى نعيش فيه .. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلاً. منها نبدأ جهاد التحرير للمرأة فى عصرنا الحديث.^(٦٠)

• فخديجة بنت خويلد (٦٨-٣ق هـ / ٥٥٦ - ٦٢٠م) (رضى الله

عنها) نموذج من نماذج الثمرات الطيبة لهذا التحرير الإسلامى للمرأة... به كانت أسبق من كل الرجال إلى الإيمان بالدعوة الإسلامية الجديدة والوليدة .. وبه كانت الداعمة - بالعقل والحكمة والمال وأيضا بالعواطف المعطاءة - لرسول الإسلام، ودعوته وأمته.. حتى كان عام وفاتها «عام الحزن» والحداد للجماعة المؤمنة كلها^(١١).

• وأسماء بنت أبى بكر الصديق (٢٧ق هـ - ٧٣هـ / ٥٩٧ - ٦٩٢م) (رضى الله عنهما) كانت نموذجا من نماذج ثمرات هذا التحرير .. تحمل أمانة سر خطة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة (١هـ - ٦٢٢م) وهى من أخطر التحولات فى تاريخ الدعوة والدولة والأمة؛ وتشارك فى تنفيذ هذا الحدث الأعظم؛ وتشهد أزرها زوجها البطل الزبير بن العوام (٢٨ق هـ - ٣٦هـ / ٥٩٦ - ٦٥٦م) فتهيئ له بيته؛ وتزرع له حقله؛ وترعى فرس جهاده وقتاله؛ وتقاتل معه فى بعض الغزوات، وتربى ولده عبد الله بن الزبير (١ - ٧٣هـ / ٦٢٢ - ٦٩٢م) على البطولة والفداء والاستشهاد؛ وتعارض وتجابه الطغاة من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفى (٤٠ - ٩٥هـ / ٦٦٠ - ٧١٤م).. ومع كل ذلك تظل أسماء هذه هى الأنثى التى تتزيا بالحشمة الإسلامية والشرقية، فلا تلبس ما يكشف أو يشف، وتحافظ على مشاعر الغيرة المفرطة عند زوجها^(١٢).

• والشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية (توفيت فى ٢٠هـ - ٦٤٠م) (رضى الله عنها) كانت ثمرة من ثمرات هذا النموذج الإسلامى لتحرير النساء. سبقت إلى الإسلام؛ وبايعت على الدخول فيه وفى أمته ودولته؛ وتميزت بالعقل والرأى والحكمة؛ واشتغلت بتعليم القراءة

والكتابة حتى كانت معلمة لحفصة أم المؤمنين؛ وروت أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم).. وكانت تحاوره؛ وأحيانا تلومه فيعتذر إليها (صلى الله عليه وسلم)، وبلغت - في المشاركة في السلطة والدولة - أن ولاها عمر بن الخطاب «ولاية الحسبة» أي «وزارة» التجارات والأسواق وأوزانها ومعاملاتها.. تراقب وتحاسب وتفصل بين التجار وأهل السوق، من الرجال والنساء^(٦٣).

• وأم هانئ بنت أبي طالب (توفيت في ٤٠هـ - ٦٦١م) (رضي الله عنها) كانت من ثمرات هذا النموذج في تحرير النساء.. أسلمت عام الفتح (٨هـ - ٦٢٩م)، ومع أن زوجها قد فر بشركه إلى نجران يوم الفتح، فلقد أجات - أي أعطت الأمان - لرجلين من قومه كانا مطلوبين للقصاص الإسلامي، ووقفت - لذلك - في وجه أخيها علي بن أبي طالب الذي هم بتنفيذ القصاص فيهما فصارعته حماية لمن أجات حتى لم يستطع منها فكاكا؛ واستجاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعهدا ولإجاتها قائلا: «قد أجرنا من أجات، وأما من أمنت يا أم هانئ.. لكن لا تغضبى عليا، فإن الله يغضب لغضبه..!» فأطلقت أباها فداعبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا: «يا علي غلبتك امرأة!»^(٦٤).

ولقد بلغ هذا التحرير الإسلامي بأم هانئ الذروة أن خطبها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لنفسه زوجا وأما للمؤمنين بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها المشرك، فاعتذرت عن خطبة الرسول - بأدب جم وحكمة بالغة - وقالت: يا رسول الله لأنت أحب إلي من سمعي

وبصرى، وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلت على ولدى أن أضيع حق الزوج. فقبل المصطفى (صلى الله عليه وسلم) اعتذارها واحترم رغبتها فى التفرغ لأولادها.. صنع ذلك وهو القائد المنتصر فى لحظات الفتح الأكبر والانتصار الأعظم التى يستبىح فى مثلها الفاتحون كل الحدود والسدود. غالب الرسول المنتصر عواطفه الإنسانية، واحترم حرية أم هانئ، وأثنى عليها وعلى ما تمثل من منظومة للقيم^(٦٥).

• وعائشة بنت أبى بكر الصديق (٩ق هـ - ٥٨هـ - ٦١٣م - ٦٧٨م) زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) وأم المؤمنين (رضى الله عنها)، كانت الزوجة الرقيقة الحبيبة؛ وراوية الأحاديث وحافظة السنة؛ والفقيهة التى تراجع القراء والرواة والفقهاء والمجتهدين؛ والمشيرة فى الشئون العامة؛ والمتذوقة للفنون التى تعرضها فرقة فنية - من الأحباش - فى مسجد النبوة والممارسة لرياضة الجرى مع زوجها (صلى الله عليه وسلم) أثناء السفر إلى الغزو والجهاد^(٦٦).

• وحفصة بنت عمر بن الخطاب زوج الرسول وأم المؤمنين (١٨ق هـ - ٤٥هـ / ٦٠٤ - ٦٦٥م) (رضى الله عنهما)، سبقت إلى الإسلام بمكة وهاجرت بدينها إلى المدينة المنورة؛ وكانت شاعرة وخطيبة فصيحة وراوية للحديث؛ واثمنتها الأمة على حفظ القرآن عندما جمع المسلمون صحائفه على عهد أبى بكر الصديق فحفظته حتى أسلمته إلى الخليفة عثمان بن عفان، فنسخت منه المصاحف التى وزعت على الأمصار، وشاركت بالرأى فى تدبير شورى الأمة بعد استشهاد أبيها الفاروق، وورثته نثرا وشعرا وخطبت فى الناس بمناقب أبى بكر وعمر، وتحدثت

عن سنة الإسلام في الاختيار الشورى للخلفاء والبيعة التعاقدية بين الأمة وبينهم^(٦٧).

• ونسيبة بنت كعب الأنصارية - أم عمارة - (رضى الله عنها) (توفيت في ١٣هـ - ٦٤٣م) كانت ثمرة ناضجة متألفة من ثمرات هذا التحرير شاركت في بيعة العقبة الجمعية التأسيسية للدولة الإسلامية الأولى، فمارست في ظلال الإسلام وتحريره للمرأة قمة الولاية السياسية قبل أربعة عشر قرناً، وشاركت في بيعة الرضوان - تحت الشجرة - عام الحديبية (٦هـ - ٦٢٨م) «على الحرب والقتال» عندما شاع أن قريشا قتلت مندوب المسلمين إليهم، عثمان بن عفان. وكانت أم عمارة ممن أوفى بما عاهد عليه الله.. ففي يوم أحد كانت ضمن أقل من عشرة هم الذين صمدوا لجيش الشرك فحموا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من القتل.. ويومئذ رآها الرسول وقد كسرت سنه وسالت دماؤه، وهي مشمرة قد ربطت ثوبها على وسطها تقاتل دونه وتتصدى لابن قميئة الذي اندفع نحو الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلاً: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا..! رآها الرسول وهي تتلقى في كتفها الطعنة التي أراد ابن قميئة توجيهها إلى الرسول.. وكانت أمها معها تعصب لها جراحها. وكان معها كذلك في هذه الملحمة ابنها الذي نزع فعصبت نزيفه ثم استنهضته للقتال. وعندما جرحت جرحها الغائر في كتفها نادى الرسول على ابنها: «أمك، أمك! اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل البيت». ثم نادى على أحد الفارين كي يعطيها ترسه لتترس به.. وقال لها في إعجاب: «من يطبق ما تطيقين يا أم

عمارة؟!.. لمقام نسيبة بنت كعب يوم أحد خير من فلان وفلان.. ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني. «أما هي، التي غادرت أرض المعركة يومئذ وفي جسدها ثلاثة عشر جرحاً فلقد قالت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) «ادع الله أن نرافقك في الجنة».. فقال (صلى الله عليه وسلم): «اللهم اجعلهم رفقاى في الجنة»، فقالت: «ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا»^(٦٨).

وعندما رجع الرسول القائد إلى المدينة، ذهب إلى بيتها ليعودها ويطمئن عليها قبل أن يذهب إلى بيته، وواصلت أم عمارة جهاد التحرير الإسلامى للمرأة المسلمة.. فذهبت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) محتجة على ما حسبته امتيازات للرجال على النساء، فقالت: يا رسول الله، ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء!.

فنزل الروح الامين على قلب الصادق الامين بالتنزيل الذى يقرن - فى صراحة اللفظ - النساء بالرجال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٦٩).

• وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية (رضى الله عنها) (توفيت فى ٣٠هـ / ٦٥٠م) كانت هى الأخرى واحدة من الكواكب اللاتى حرهن الإسلام فأضأن فى سماء تحرير المرأة المسلمة. شاركت مع أم عمارة فى

عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى بببيعة العقبة (٢ق هـ - ٦٢٠م)؛ وشهدت يوم الفتح الأعظم (فتح مكة)، وقاتلت يوم اليرموك (١٥هـ - ٦٣٦م) في فتوحات الشام، وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها؛ وكانت من ذوات الرأى والعقل والحكمة والدين، خطيبة فصيحة تهز أعواد المنابر إذا خطبت، وتقوم على تنظيم النساء المؤمنات، وتتزعم المطالبة بما لهن من حقوق، حتى لقد سميت في كتب السنة والسيرة بـ «وافدة النساء»، أى رسولة وزعيمة النساء فى المطالبة بحقوقهن لأنها ذهبت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو فى المسجد متحدثة باسم نساء المسلمين، فقالت: «أنا وافدة من خلفى من النساء يقطن بقولى وهن على مثل رأىي. إن الله قد بعثك للرجال والنساء. ولقد غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، تعلمنا فيه». فوعدهن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوماً، لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن.. وروت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أكثر من ثمانين حديثاً^(٧٠).

تلك مجرد إشارات لأمثلة من النماذج التى جسدت نوعية التحرير الذى أنجزه الإسلام للمرأة منذ فجر البعثة النبوية وإشراق شمس حضارة الإسلام. وإذا كانت هذه النماذج شاهدة شهادة صدق على نوعية التحرير ونموذجه، فإن الآفاق الواسعة التى بلغتها موجات هذا التحرير تشهد على عموم النعمة التى تمثلت فيه^(٧١).



هوامش الفصل

- (١) عبد العاطى محمد أحمد - الفكر السياسى للإمام محمد عبده - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٨م - ص١٧١.
- (٢) الإمام محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق: د. محمد عمارة - ج٤ - ص ٦٥٤، وأيضاً: د. محمد عمارة - الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده - ص ١٤.
- (٣) المصدر السابق - ج٤ - ص٦٧٧.
- (٤) د. محمد عمارة - الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده - ص ٥٢ وأيضاً: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - دراسة تحقيق: د. محمد عمارة - ج٤ - ص ٦٣٢.
- (٥) محمد عبده - رسالة التوحيد - تحقيق د. محمود أبورية - دار المعارف - القاهرة - الطبعة السادسة - ٢٠٠٣ - ص ١٣٨.
- (٦) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق: د. محمد عمارة - ج ١ - ص ٣٦٨.
- (٧) قاسم أمين - تحرير المرأة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - بدون تاريخ - ص ١٤٥.
- (٨) قاسم أمين - تحرير المرأة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٠م - ص ٩٩.
- (٩) محمد عبده - مقال خطأ العقلاء فى الوقائع المصرية - العدد ١٠٧٩ - ١٨٨١م الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق: د. محمد عمارة - ج ١ - ص ٣٢٤.

- (١٠) محمد عبده - مقال الحياة السياسية - الوقائع المصرية -
عدد ١٢٥١ - سنة ١٨٨١م - الأعمال الكاملة - ج ١ - ص ٣٦٥.
- (١١) المصدر السابق - نفس الصفحة.
- (١٢) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق:
د. محمد عمارة - ج ١ - ص ٣٦٨ - مقال الحياة السياسية -
الوقائع المصرية - عدد ١٢٥١ - ١٨٨١م.
- (١٣) المصدر السابق - ص ٣٧٠.
- (١٤) المصدر السابق - ص ٣٦٨.
- (١٥) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق:
د. محمد عمارة - ج ١ - ص ٣٦٧.
- (١٦) المصدر السابق - ص ٣٦٩.
- (١٧) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق:
د. محمد عمارة - ج ٤ - ص ٦٥٠ - ٦٥٥ - وأيضا: د. محمد
عمارة - الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده - ص ٦٩.
- (١٨) سورة البقرة - آية ٢٣٢.
- (١٩) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق:
د. محمد عمارة - ج ٤ - نفس الصفحات - وأيضا: د. محمد
عمارة - الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده - ص ٦٩ -
٧٠.
- (٢٠) المصدر السابق - وأيضا: د. محمد عمارة - الإسلام والمرأة في
رأى الإمام محمد عبده - ص ٧٠ - ٧١.

- (٢١) د. محمد عمارة - الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده -
ص ٧٢، وأيضا: محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد
عبده - تحقيق: د. محمد عمارة - ج ٤ - ص ٦٥٠ - ٦٥٥ .
- (٢٢) المرجع السابق - ص ٧٢ .
- (٢٣) سورة البقرة - آية ٢٣٢ .
- (٢٤) د. محمد عمارة - الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده -
ص ٧٣ .
- (٢٥) المرجع السابق - ص ٧٤ .
- (٢٦) المرجع السابق - ص ٧٥ .
- (٢٧) المرجع السابق - ص ٧٤ .
- (٢٨) المرجع السابق - ص ٧٤-٧٥ .
- (٢٩) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق: د.
محمد عمارة - ج ٢ - ص ٧٥ .
- (٣٠) سورة البقرة - آية ٢٢٨ .
- (٣١) سورة النساء - آية ١٩ .
- (٣٢) سورة النساء - آية ٢١ .
- (٣٣) أخرجه أبو داود، سنة (١٤)، وأحمد بن حنبل، المسند ٣/٣٥٠،
٤٧٣، ٥٣٧، ٨٩/٥، ٩٩، ٤٧/٦، ٩٩ .
- (٣٤) أخرجه أحمد بن حنبل، المسند ٣/١٢٨، ١٩٩٠، ٢٨٥، والنسائي،
السنن كتاب عشرة النساء باب (١) .
- (٣٥) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق: د.
محمد عمارة - ج ٢ - ص ٧٥ .

- (٣٦) المصدر السابق - ج ٢ - ص ٧٦.
- (٣٧) المصدر السابق - الصفحة نفسها.
- (٣٨) المصدر السابق - ج ٢ - ص ٧٧.
- (٣٩) د. عثمان أمين - رائد الفكر المصرى - مكتبة الأنجلو - القاهرة
- ط ٢ - بدون تاريخ - ص ٢٢٨.
- (٤٠) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق:
د. محمد عمارة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٧٢م
- ج ٢ - ص ٦٨.
- (٤١) المصدر السابق - ج ٢ - ص ٧١.
- (٤٢) محمد عبده - مقال حاجة الإنسان إلى الزواج - الوقائع المصرية
- العدد ١٠٥٥ - ١٨٨١م - د. محمد عمارة - الأعمال الكاملة
للإمام محمد عبده - ج ٢ - ص ٦٨.
- (٤٣) سورة الروم - آية ٢١.
- (٤٤) سورة الروم - آية ٢١.
- (٤٥) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق:
د. محمد عمارة - ج ٢ - ص ٧٢.
- (٤٦) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ٥ - ص ٨٠.
- (٤٧) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق:
د. محمد عمارة - ج ٢ - ص ٧٢.
- (٤٨) المصدر السابق - ج ٢ - ص ٧٢ - ٧٣.
- (٤٩) المصدر السابق - ج ٢ - ص ٧٤.
- (٥٠) محمد عبده - تفسير المنار - ج ٢ - ص ٣٩٨.

- (٥١) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق :
د. محمد عمارة - ج ٢ - ص ٧٠.
- (٥٢) المصدر السابق - الصفحة نفسها.
- (٥٣) عبد العاطي محمد أحمد - الفكر السياسى للإمام محمد عبده -
الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٨ - ص ٢٧٩.
- (٥٤) المصدر السابق - ص ٢٧٩ - ٢٨٠.
- (٥٥) قاسم أمين - المرأة الجديدة - مطبعة المعارف - القاهرة - ١٩٠٠ م
- ص ٩٩.
- (٥٦) انظر د. عاطف العراقي - العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر
- دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر - الإسكندرية - ط ٣ - ٢٠٠٤ م
- ص ٢٢ وما بعدها.
- (٥٧) د. عاطف العراقي - الشيخ الإمام محمد عبده والتنوير - قرن
من الزمان على وفاته - دار الرشاد - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠٧ م
ص ٢٩.
- (٥٨) المرجع السابق - ص ٢٩٨.
- (٥٩) قاسم أمين - المرأة الجديدة - ص ٥٦.
- (٦٠) د. محمد عمارة - التحرير الإسلامى للمرأة للرد على شبهات
الغلاة - دار الشروق - القاهرة - ط ١ - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٢ م -
ص ١٣.
- (٦١) المرجع السابق - ص ١٣ - ١٤.
- (٦٢) المرجع السابق - ص ١٤.
- (٦٣) المرجع السابق - ص ١٤.

- (٦٤) المرجع السابق - ص ١٤ - ١٥ .
(٦٥) المرجع السابق - ص ١٥ .
(٦٦) المرجع السابق - ص ١٦ .
(٦٧) المرجع السابق - ص ١٦ - ١٧ .
(٦٨) المرجع السابق - ص ١٧ - ١٨ .
(٦٩) سورة الأحزاب - آية ٣٥ .
(٧٠) د. محمد عمارة - التحرير الإسلامي للمرأة للرد على شبهات
الغلاة - ص ١٩ .
(٧١) المرجع السابق - الصفحة نفسها .

□□□